بريد الجمعـــة

إثراء المعارف الرقمية

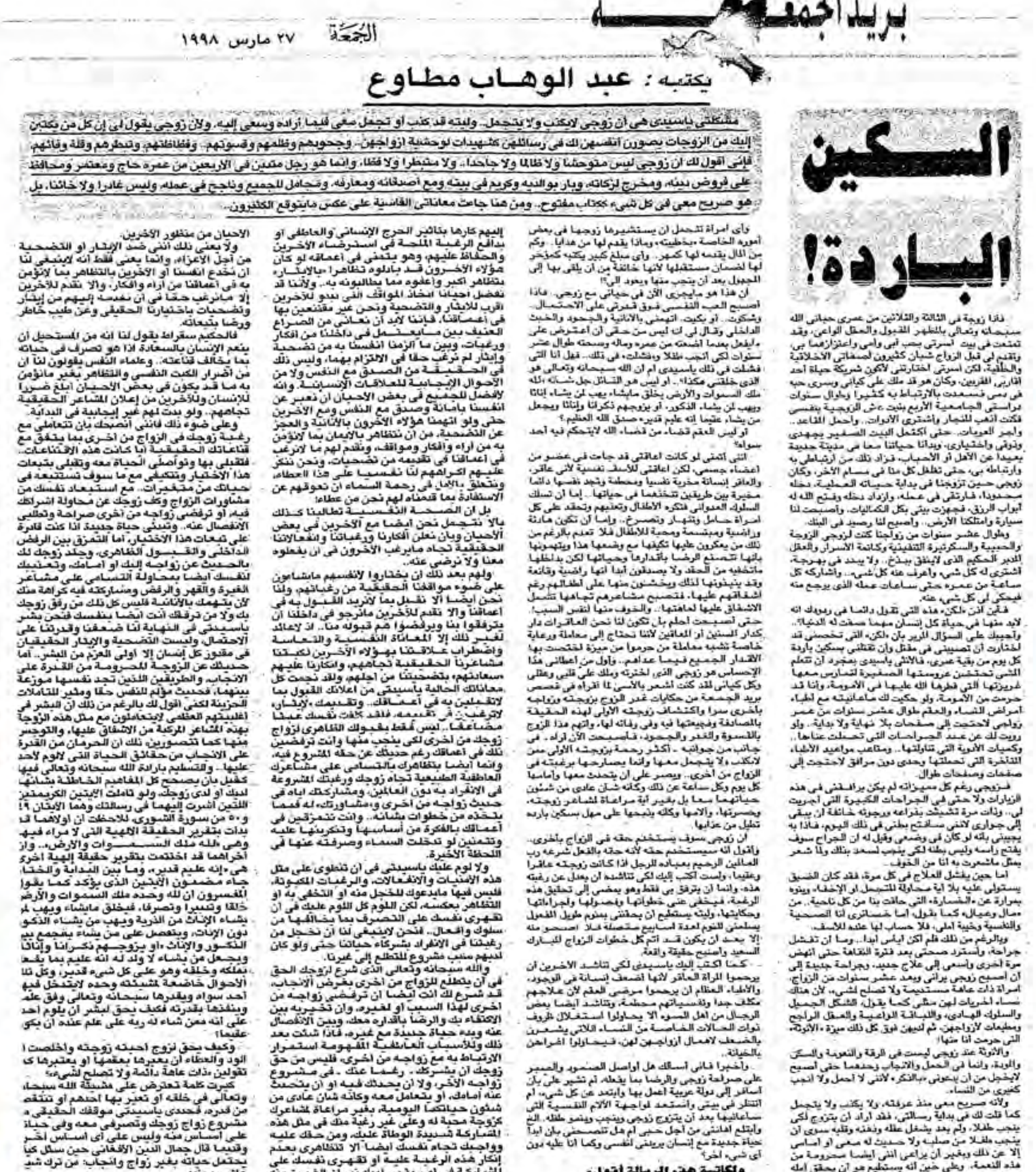

بريد الجمعـــة

الجُمعَة ٢٧ مارس ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهـاب مطـاوع

السكين الباردة!

مشكلتي ياسيدي هي أن زوجي لايكذب ولا يتجمل.. وليته قد كذب أو تجمل معي فيما أراده وسعى إليه. ولأن زوجي يقول لي إن كل من يكتبن إليك من الزوجات يصورن أنفسهن لك في رسائلهن كشهيدات لوحشية ازواجهن.. وجحودهم وظلمهم وقسوتهم.. وفظاظتهم، وتبطرهم وقلة وفائهم، فإني أقول لك ان زوجي ليس متوحشا ولا ظالما ولا جاحدا.. ولا متبطرا ولا فظا، وإنما هو رجل متدين في الاربعين من عمره حاج ومعتمر ومحافظ على فروض دينه، ومخرج لزكاته، وبار بوالديه وكريم في بيته ومع أصدقائه ومعارفه، ومجامل للجميع وناجح في عمله وليس غادرا ولا خائنا، بل هو صريح معي في كل شيء «ككتاب مفتوح».. ومن هنا جاءت معاناتي القاسية على عكس مايتوقع الكثيرون..

فأنا زوجة في الثالثة والثلاثين من عمري حباني الله سبحانه وتعالى بالمظهر المقبول والعقل الواعي، وقد تمتعت في بيت أسرتي بحب أبي وأمي واعتزازهما بي، وتقدم لي قبل الزواج شبان كثيرون لصفاتي الأخلاقية والخلقية، لكن أسرتي اختارتني لأكون شريكة حياة أحد أقاربي القريبين، وكان هو قد ملك على كياني وسرى حبه في دمي فسعدت بالارتباط به كثيرا وطوال سنوات دراستي الجامعية الأربع بنيت عش الزوجية بنفسي فكنت أذهب للنجار وأشتري الأدوات.. وأحمل المقاعد.. وأجر العربات.. حتى اكتمل البيت الصغير بجهدي وذوقي واختياري، وبدأنا حياتنا معا في مدينة جديدة بعيدا عن الأهل أو الأحباب، فزاد ذلك من ارتباطي به وارتباطه بي، حتى تغلغل كل منا في مسام الآخر، وكان زوجي حين تزوجنا في بداية حياته العملية، دخله محدودا، فارتقى في عمله، وازداد دخله وفتح الله له أبواب الرزق، فجهزت بيتي بكل الكماليات، وأصبحت لنا سيارة وامتلكنا الأرض.. وأصبح لنا رصيد في البنك.

وطوال عشر سنوات من زواجنا كنت لزوجي الزوجة والحبيبة والسكرتيرة التنفيذية وكاتمة الأسرار والعقل المدبر الحكيم الذي لاينفق ببذخ.. ولا يبدد في بهرجة، أشتري له كل شيء وأعرف عنه كل شيء.. وأشاركه كل ساعة من عمره حتى ساعات عمله الذي يرجع منه فيحكي لي كل شيء عنه.

فأين إذن «لكن» هذه التي تقول دائما في ردودك انه لابد منها في حياة كل إنسان مهما صفت له الدنيا؟.. وأجيبك على السؤال المرير بأن «لكن» التي تخصني قد اختارت أن تصيبني في مقتل وأن تقتلني بسكين باردة كل يوم من بقية عمري، فالأنثى ياسيدي بمجرد أن تتعلم المشي تحتضن عروستها الصغيرة لتمارس معها غريزتها التي فطرها الله عليها في الأمومة، وأنا قد حرمت من الأمومة، ولو حكيت لك ماعانيته مع أطباء أمراض النساء والعقم طوال عشر سنوات من عمر زواجي لاحتجت إلى صفحات بلا نهاية ولا بداية.. ولو رويت لك عن عدد الجراحات التي تحملت عناءها.. وكميات الأدوية التي تناولتها.. ومتاعب مواعيد الأطباء المتأخرة التي تحملتها وحدي دون مرافق لاحتجت إلى صفحات وصفحات طوال.

فزوجي رغم كل مميزاته لم يكن يرافقني في هذه الزيارات ولا حتى في الجراحات الكبيرة التي أجريت لي.. وذات مرة تشبثت بذراعه ورجوته خائفة أن يبقى إلى جواري لأنني سأفتح بطني في ذلك اليوم، فإذا به يجيبني بأنه لو كان في وضعي وقيل له ان الجراح سوف يفتح رأسه وليس بطنه لكي ينجب لسعد بذلك ولما شعر بمثل ماشعرت به أنا من الخوف.

أما حين يفشل العلاج في كل مرة، فقد كان الضيق يستولي عليه بلا أية محاولة للتجمل أو الإخفاء، ويتوه بمرارة عن «الخسارة» التي حاقت بنا من كل ناحية.. من «مال وعيال» كما يقول، أما خسائري أنا الصحية والنفسية وخيبة أملي، فلا حساب لها عنده للأسف.

وبالرغم من ذلك فلم أكن أيأس أبدا.. وما أن تفشل جراحة، وأسترد صحتي بعد فترة النقاهة حتى أنهض مرة أخرى وأسعى إلى علاج جديد، وجراحة جديدة إلى أن أصبح زوجي يراني وبعد عشر سنوات من الزواج، امرأة ذات عاهة مستديمة ولا تصلح لشيء، لأن هناك نساء أخريات لهن مثلي كما يقول، الشكل الجميل والسلوك الهادي، واللباقة الواعية والعقل الراجح ومطيعات لأزواجهن، ثم لديهن فوق كل ذلك ميزة «الأنوثة» التي حرمت أنا منها!

والأنوثة عند زوجي ليست في الرقة والنعومة والسكن والمودة، وإنما في الحمل والانجاب وحدهما حتى أصبح لايخجل من أن ينعتني «بالذكر» لأنني لا أحمل ولا أنجب كغيري من النساء.

ولأنه صريح معي منذ عرفته، ولا يكذب ولا يتجمل كما قلت لك في بداية رسالتي، فقد أراد أن يتزوج لكي ينجب طفلا، ولم يعد يشغل عقله وذهنه وقلبه سوى أن ينجب طفلا من صلبه ولا حديث له معي أو أمامي إلا عن ذلك وبغير أن يراعي أنني أيضا محرومة من هذه النعمة، وطبعا حين انه يستطيع هو أن يحقق أمله في الانجاب بالزواج من أخرى، فإنني لا أستطيع ذلك للأسف.

فأي امرأة ياسيدي تتحمل «خطبة» زوجها لأخرى، وحديثه أمامها مع مخطوبته، في التليفون كما يفعل زوجي الآن وكلامه عنها ببساطة في وجودها مع أسرته

وأي امرأة تتحمل ان يستشيرها زوجها في بعض أموره الخاصة «بخطيبته»، وماذا يقدم لها من هدايا.. وكم من المال يقدمه لها كمهر.. وأي مبلغ كبير يكتبه كمؤخر لها لضمان مستقبلها لأنها خائفة من أن يلقى بها إلى المجهول بعد أن ينجب منها ويعود الي؟!

ان هذا هو مايجري الآن في حياتي مع زوجي.. فإذا أصبح العبء النفسي فوق قدرتي على الاحتمال.. وشكوت.. أو بكيت، اتهمني بالأنانية والجحود والخبث الداخلي وقال لي انه ليس من حقي أن أعترض على مايفعل بعدما أضاع من عمره وماله وصحته طوال عشر سنوات لكي أنجب طفلا «وفشلت» في ذلك.. فهل أنا التي فشلت في ذلك ياسيدي أم ان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقني هكذا؟.. أو ليس هو القائل جل شأنه «لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير» صدق الله العظيم؟

أو ليس العقم قضاء من قضاء الله لايتحكم فيه أحد سواه؟

انني أتمنى لو كانت اعاقتي قد جاءت في عضو من أعضاء جسمي، لكن اعاقتي للأسف نفسية لأني عاقر، والعاقر إنسانة مخربة نفسيا ومحطمة وتجد نفسها دائما مخيرة بين طريقين تتخذهما في حياتها.. إما أن تسلك السلوك العدواني فتكره الأطفال وتعذبهم وتحقد على كل امرأة حامل وتنهار وتصرخ.. وإما أن تكون هادئة وراضية ومبتسمة ومحبة للأطفال فلا تعدم بالرغم من ذلك من يعكرون عليها تكيفها مع وضعها هذا ويتهمونها بأنها تصطنع الرضا بأقدارها وحياتها لكن بداخلها ماتخفيه من الحقد ولا يصدقون أبدا أنها راضية وقانعة وقد ينبذونها لذلك ويخشون منها على أطفالهم رغم اشفاقهم عليها، فتصبح مشاعرهم تجاهها تشمل الاشفاق عليها لعاهتها.. والخوف منها لنفس السبب!

حتى أصبحت أحلم بأن تكون لنا نحن العاقرات دار كدار المسنين أو المعاقين لأننا نحتاج إلى معاملة ورعاية خاصة تشبه معاملة من حرموا من ميزة اختصت بها الأقدار الجميع فيما عداهم.. وأول من أعطاني هذا الإحساس هو زوجي الذي اخترته وملك على قلبي وعقلي وكل كياني لقد كنت أشعر بالأسى لما أقرأه في قصص بريد الجمعة من حكايات غدر الزوج بزوجته وزواجه بأخرى سرا واكتشاف زوجته الأولى لهذه الحقيقة بالمصادفة وفجيعتها فيه وفي وفائه لها، واتهم هذا الزوج بالقسوة والغدر والجحود، فأصبحت الآن أراه.. في جانب من جوانبه.. أكثر رحمة بزوجته الأولى ممن لايكذب ولا يتجمل معها وإنما يصارحها برغبته في الزواج من أخرى.. ويصر على أن يتحدث معها وأمامها كل يوم وكل ساعة عن ذلك وكأنه شأن عادي من شئون حياتهما معا بل بغير أية مراعاة لمشاعر زوجته، وحسرتها، وآلامها وكأنه يذبحها على مهل بسكين باردة تطيل من عذابها.

ان زوجي سوف يستخدم حقه في الزواج بأخرى.. وأقول انه سيستخدم حقه لأنه حقه بالفعل شرعه رب العالمين الرحيم بعباده للرجل اذا كانت زوجته عاقرا وعقيما، ولست أكتب إليك لكي تناشده أن يعدل عن رغبته هذه، وإنما أن يترفق بي فقط وهو يمضي إلى تحقيق هذه الرغبة، فيخفي عني خطواتها وفصولها وإجراءاتها وحكاياتها، وليته يستطيع أن يحقنني بمنوم طويل المفعول يسلمني للنوم لعدة أسابيع متصلة فلا أصحو منه إلا بعد أن يكون قد أتم كل خطوات الزواج المبارك السعيد وأصبح حقيقة واقعة.

كما أكتب إليك ياسيدي لكي تناشد الآخرين أن يرحموا المرأة العاقر لأنها أضعف إنسانة في الوجود، والأطباء العظام أن يرحموا مرضى العقم لأن علاجهم مكلف جدا ونفسياتهم محطمة، وتناشد أيضا بعض الرجال من أهل السوء ألا يحاولوا استغلال ظروف ذوات الحالات الخاصة من النساء اللاتي يشعرن بالضعف لاهمال أزواجهن لهن، فيحاولوا اغراءهن بالخيانة..

وأخيرا فإني أسألك هل أواصل الصمود والصبر على صراحة زوجي والرضا بما يفعله، أم تشير على بأن أسافر إلى دولة عربية أعمل بها وأبتعد عن كل شيء، أم انتظر في بيتي وأستعد لمواجهة الآلام النفسية التي سأعانيها بعد أن يتزوج زوجي وينجب وينمو طفله.. الخ وأبتلع اهاناتي من أجل حبي أم هل تنصحني بأن أبدأ حياة جديدة مع إنسان يرضيني لنفسي وكما أنا عليه دون أي شيء آخر؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

بعض أسباب شقاء الإنسان يرجع إلى انه حين يدعى في بعض الأحيان إلى الاختيار.. فإنه قد يكبت أفكاره ومشاعره الحقيقية التي يكتوي بنارها في أعماقه، ويعلن مايعرف جيدا أن الآخر، يطالبه به وينتظره منه، ويقدمه إليهم كارها بتأثير الحرج الإنساني والعاطفي أو بدافع الرغبة الملحة في استرضاء الآخرين والحفاظ عليهم، وهو يتمنى في أعماقه لو كان هؤلاء الآخرون قد بادلوه تظاهرا «بالإيثار» بتظاهر أكبر وأعفوه مما يطالبونه به.. ولأننا قد نفضل أحيانا اتخاذ المواقف التي تبدو للآخرين أقرب للإيثار والتضحية ونحن غير مقتنعين بها في أعماقنا، فإننا لابد أن نعاني من الصراع العنيف بين مايعتمل في داخلنا من أفكار ورغبات، وبين ما ألزمنا أنفسنا به من تضحية وإيثار لم نرغب حقا في الالتزام بهما، وليس ذلك في الحقيقة من الصدق مع النفس ولا من الأحوال الإيجابية للعلاقات الإنسانية. وإنه لأفضل للجميع في بعض الأحيان أن نعبر عن أنفسنا بأمانة وصدق مع النفس ومع الآخرين حتى ولو اتهمنا هؤلاء الآخرون بالأنانية والعجز عن التضحية، من أن نتظاهر بالايمان بما لانؤمن به من آراء وأفكار ومواقف، ونقدم لهم ما لانرغب في أعماقنا في تقديمه من تضحيات، ونحن ننكر عليهم اكراههم لنا نفسيا على هذا العطاء، ونتعلق بالأمل في رحمة السماء ان تعوقهم عن الاستفادة بما قدمناه لهم نحن من عطاء!

بل ان الصحة النفسية تطالبنا كذلك بألا نتجمل نحن أيضا مع الآخرين في بعض الأحيان وبأن نعلن أفكارنا ورغباتنا وانفعالاتنا الحقيقية تجاه مايرغب الآخرون في ان يفعلوه معنا ولا نرضى عنه..

ولهم بعد ذلك ان يختاروا لأنفسهم مايشاءون على ضوء مواقفنا الحقيقية من رغباتهم، ولنا نحن أيضا ألا نقبل بما لانريد القبول به في أعماقنا وألا نقدم للآخرين مانرجو في داخلنا أن يترفقوا بنا ويرفضوا هم قبوله منا.. اذ لاعائد لغير ذلك إلا المعاناة النفسية والتعاسة واضطراب علاقتنا بهؤلاء الآخرين لكبتنا مشاعرنا الحقيقية تجاههم، وانكارنا عليهم «سعادتهم» بتضحيتنا من اجلهم، ولقد نجمت كل معاناتك الحالية ياسيدتي من اعلانك القبول بما لاتقبلين به في أعماقك.. وتقديمك «لإيثار» لاترغبين في تقديمه، فلقد كلفت نفسك عبئا مضاعفا.. ليس فقط بقبولك الظاهري لزواج زوجك من أخرى لكي ينجب منها وأنت ترفضين ذلك في أعماقك رغم حديثك عن حقه المشروع فيه، وإنما أيضا بتظاهرك بالتسامي على مشاعرك العاطفية الطبيعية تجاه زوجك ورغبتك المشروعة في الانفراد به دون العالمين، ومشاركتك اياه في حديث زواجه من أخرى و«مشاورتك» له فيما يتخذه من خطوات بشأنه.. وأنت تتمزقين في أعماقك بالفكرة من أساسها وتكرهينها عليه وتتمنين لو تدخلت السماء وصرفته عنها في اللحظة الأخيرة.

ولا لوم عليك ياسيدتي في أن تنطوي على مثل هذه الأمنيات والانفعالات، والرغبات المكبوتة، فليس فيها مايدعوك للخجل منه أو التخفي به أو التظاهر بعكسه، لكن اللوم كل اللوم عليك في أن تقهري نفسك على التصرف بما يخالفها من سلوك وأفعال.. فنحن لاينبغي لنا أن نخجل من رغبتنا في الانفراد بشركاء حياتنا حتى ولو كان لديهم سبب مشروع للتطلع إلى غيرنا.

والله سبحانه وتعالى الذي شرع لزوجك الحق في أن يتطلع للزواج من أخرى بغرض الانجاب، قد شرع لك انت أيضا ان ترفضي زواجه من أخرى لهذا السبب أو لغيره، وأن تخيريه بين الاكتفاء بك والرضا بأقداره معك، وبين الانفصال عنه وبدء حياة جديدة مع غيره، فإذا شئت بعد ذلك وللأسباب العاطفية المفهومة استمرار الارتباط به مع زواجه من أخرى، فليس من حق زوجك أن يشركك.. رغما عنك.. في مشروع زواجه الآخر، ولا أن يحدثك فيه أو أن يتحدث عنه أمامك، أو يتعامل معه وكأنه شأن عادي من شئون حياتكما اليومية، بغير مراعاة لمشاعرك كزوجة محبة له وعلى غير رغبة منك في مثل هذه المشاركة شديدة الوطأة عليك، ومن حقك عليه وواجبك تجاه نفسك أيضا ألا تتظاهري بعدم إنكار هذه الرغبة عليه أو تقهري نفسك على المشاركة في أمر يثير لديك نيران الغيرة منه فتحترقي بشواظها.. وتتمزقي بين أفكارك الداخلية.. وسلوكك المناقض لها مع زوجك والمجتمع المحيط به من الأهل والأصدقاء.. فمن دواعي الصحة النفسية والصدق مع النفس ومع الآخرين ان يتسق سلوكنا مع أفكارنا الداخلية الأحيان من منظور الآخرين.

ولا يعني ذلك أنني ضد الإيثار أو التضحية من أجل الأعزاء، وإنما يعني فقط أنه لاينبغي لنا أن نخدع أنفسنا أو الآخرين بالتظاهر بما لانؤمن به في أعماقنا من آراء وأفكار، وألا نقدم للآخرين إلا مانرغب حقا في أن نقدمه إليهم من إيثار وتضحيات باختيارنا الحقيقي وعن طيب خاطر ورضا بتبعاته.

فالحكيم سقراط يقول لنا انه من المستحيل أن ينعم الإنسان بالسعادة اذا هو تصرف في حياته بما يخالف قناعته.. وعلماء النفس يقولون لنا ان من أضرار الكبت النفسي والتظاهر بغير مانؤمن به ما قد يكون في بعض الأحيان أبلغ ضررا للإنسان وللآخرين من إعلان المشاعر الحقيقية تجاههم.. ولو بدت لهم غير إيجابية في البداية.

وعلى ضوء ذلك فإنني أنصحك بأن تتعاملي مع رغبة زوجك في الزواج من أخرى بما يتفق مع قناعاتك الحقيقية أيا كانت هذه الاقتناعات.. فتقبلي بها وتواصلي الحياة معه وتقبلي بتبعات هذا الاختيار وتتكيفي مع ما سوف تستتبعه في حياتك من متغيرات.. مع استبعاد نفسك من مشاورات الزواج وكف زوجك عن محاولة اشراكك فيه، أو ترفضي زواجه من أخرى صراحة وتطلبي الانفصال عنه.. وتبني حياة جديدة اذا كنت قادرة على تبعات هذا الاختيار، أما التمزق بين الرفض الداخلي والقبول الظاهري، وجلد زوجك لك بالحديث عن زواجه إليك أو أمامك، وتعذيبك لنفسك أيضا بمحاولة التسامي على مشاعر الغيرة والقهر والرفض ومشاركته فيه كراهة منك لأن يتهمك بالأنانية فليس كل ذلك من رفق زوجك بك ولا من ترفقك أنت أيضا بنفسك فنحن بشر ياسيدتي في النهاية لنا ضعفنا وقدرتنا على الاحتمال، وليست التضحية والإيثار الحقيقيان في مقدور كل إنسان إلا أولي العزم من البشر.. أما حديثك عن الزوجة المحرومة من القدرة على الانجاب، والطريقين اللذين تجد نفسها موزعة بينهما، فحديث مؤلم للنفس حقا ومثير للتأملات الحزينة لكني أقول لك بالرغم من ذلك أن البشر في أغلبيتهم العظمى لايتعاملون مع مثل هذه الزوجة بهذه المشاعر المركبة من الاشفاق عليها، والتوجس منها كما تتصورين، ذلك ان الحرمان من القدرة على الانجاب من حقائق الحياة التي لالوم لأحد عليها.. والتسليم بإرادة الله سبحانه وتعالى فيها كفيل بأن يصحح كل المفاهيم الخاطئة بشأنها لديك أو لدى زوجك، ولو تأملت الآيتين الكريمتين اللتين أشرت إليهما في رسالتك وهما الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الشورى، للاحظت ان أولاهما قد بدأت بتقرير الحقيقة الالهية التي لا مراء فيها وهي «لله ملك السمـــوات والأرض».. وان أخراهما قد اختتمت بتقرير حقيقة إلهية أخرى هي «إنه عليم قدير»، وما بين البداية والختام جاء مضمون الآيتين الذي يؤكد كما يقول المفسرون ان لله وحده ملك السموات والأرض خلقا وتدبيرا وتصرفا، فيخلق مايشاء ويهب لم يشاء الإناث من الذرية ويهب من يشاء الذكور دون الإناث، ويتفضل على من يشاء بجمع بين الذكور والإناث «أو يزوجهم ذكرانا وإناثا» ويجعل من يشاء لا ولد له انه عليم بما يقع بملكه وخلقه وهو على كل شيء قدير، وكل تلك الأحوال خاضعة لمشيئته وحده لايتدخل فيها أحد سواه ويقدرها سبحانه وتعالى وفق علمه وينفذها بقدرته فكيف يحق لبشر ان يلوم أحد على أنه ممن شاء له ربه على علم عنده ان يكو عقيما!

وكيف يحق لزوج احبته زوجته واخلصت ا الود والعطاء أن يعيرها بعقمها او يعتبرها ك تقولين «ذات عاهة دائمة ولا تصلح لشيء»؟

كبرت كلمة تعترض على مشيئة الله سبحا وتعالى في خلقه أو تعير بها أحدهم أو تنتقص من قدره، فحددي ياسيدتي موقفك الحقيقي م مشروع زواج زوجك وتصرفي معه وفي حياة على أساس منه وليس على أي أساس آخر وقديما قال جمال الدين الأفغاني حين سئل كي يحتمل حياته بغير زواج وانجاب: من ترك شي عاش بدونه!

ولا شك ان الإنسان قادر دائما على ان يحي ببعض أوجه النقص في حياته بشرط ان يق بها عن رضا ويتكيف معها ويحيا في سلام نفسه وليس محترقا دائما مما حرم منه ومعذبا بإحساسه المضاعف بهذا النقص.